مقياس: النقد الأدبي المعاصر

السنة الثانية: دراسات نقدية

المحاضرة السابعة: الأسلوبية 1

1- مفهوم الأسلوبية:

تفتح الأسلوبيــة للدارس مجالات واسعــة في التعامل مع النص الأدبي وفهمه واكتشاف ما فيه من إبداع وتميز، ذلك أنها علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الأدبي خصائص الشعرية ، فتميزه عن غيره، وتتعدى مهمة تحديد الظاهرة إلى دراستها دراسة منهجية ، ويعد الأسلوب ظاهرة لغوية ضمن النص الأدبي .

« ومن ثم فإن مصطلح الأسلوبية يتجاوز مصطلح الأسلوب ، وإن كان مجالها يظل في دائرته ، وهي في الوقت ذاته تفتح لها مجالات أرحب وأفسح ، فمنها دراسة الإمكانات اللغوية التي تولد تأثيرات جمالية، ودراسة الركائز التي يعتمد عليها هذا التأثير الجمالي» .

وتأخذ الأسلوبية مفهوم « البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب» ، أي دراسة الأسلوب وهو جانب إنساني ذاتي دراسة علمية موضوعيــة ، وهي أيضا « دراسة الأسلوب عبر الانزياحات اللغوية والبلاغيــة في الكتابة الأدبية » ، فهي إذن تعنى بالجانب الفني والجمالي في النصوص الأدبية ، ما جعل رومان جاكبسون Roman Jackobson يعرفها بأنها بحث عما يتميـــز به الكلام الفني عن بقيــة مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا.

وقد أطلــق الباحث فون درجابلنتس Von der Gabelents مصطلح الأسلوبيــة سنــة 1875، غير أن من أصل لهذا العلم وأرسى قواعده هو شارل بالي Charles Bally سنة 1902 مثلما أرسى أستاذه فرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure أصول علم اللغة (اللسانيات)، غير أن آراء بالي أتت عليها أطوار من النقد والشك ونبذ الجانب العقلاني فيها ومن أبرز هؤلاء المشككين: ماروزو Jules *Marouzeau* وكراسو Crasseux و*سبيتزر* Leo Spitzer.

ثم توالت الدراسات بعد ذلك سعيا لإثبات شرعية الأسلوبية وعدها علما له مقوماته وأدواته الإجرائية وموضوعه، وكان ذلك مع رومان جاكبسون Roman Jackobson وميشال ريفاتير Michael Privateer وستيفن أولمان Stephen Ullmann وباختين Mikhail Mikhailovich ... وغيرهم من الباحثين.

إن أسلوبية شارل بالي مطلقة الوجود فهي تبحث في الخطاب الألسني أينما كان، ولا تختص بالحدث الأدبي فحسب، فهو لم يعمد إلى تقسيم اللغة إلى لغة الخطاب النفعي ولغة الخطاب الأدبي، إنما رغب عن هذا التصنيف وذهب إلى تصنيف الخطاب إلى نوعيــن: ما هو حامل لذاتــه وما هو حامــل للعواطـف والخلجـات والانفعـالات، فاللغــة تكشف عن وجهين وجه فكري ووجه عاطفي ، ومعدن الأسلوبية – حسب بالي – هو « ما يقـوم في اللغة من وسائل تعبيرية تُبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية، بل حتى الاجتماعية والنفسيــة، فهي إذن تنكشف أولا وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني».

غير أن جلّ رواد الأسلوبيــة قصروا عليها الخطاب الفني، فجاكوبسون خصها بأنــها «بحث فيما يتميّز به الكلام الفني»؛ أي دراسة الخصائص اللغوية التي تميز الكلام الأدبي عن غيره من الكلام، أو الخصائص التي تجعل الكلام ذا أثر فني، وميشال ريفاتير حدد مفهومها بأنها «علم يعنى بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية، وهي تعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء علم الأسلوب، وهي تنطلق من اعتبار الأثر الأدبي بنية ألسنيّة تتحاور

مع السياق المضموني تحاورا خاصا»، بمعنى أنها دراسة لغوية تعنى بالبحث عن الأثر الفني في النصوص الأدبية.

وهو ما ذهب إليه بيار جيرو Pierre Giraud الذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته الإبلاغية، فالأسلوبية تسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية.

تعد الأسلوبية منهجا نقديا يمكن القارئ من إدارك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نافذا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظيفية، فهي وسيلة لدراسة الأدب في النقد الحديث، لكنها لم تكن مقتصرة على دراسة الأدب إنما تدخل في مجال الدرس اللساني عامة، فقد تقاطعت مع لسانيات دو سوسير، وطور معالمها تلميذه شارل بالي في كتابه مصنف الأسلوبية الفرنسية Traité de stylistique Française مركزا على الأسلوبية النفسية والوجدانية والتعبيرية اللغوية، ثم جاء مارسال كروسو ليحول الجانب الوجداني للغة إلى مفهوم جمالي، ولحقه في ذلك بيار جيرو.

فالأسلوبية منهج يعتمد اللغة باعتبارها وسيلة للكشف عن الخصائص التعبيرية والشعرية التي تميز الخطاب، ويعد الأسلوب ظاهرة بارزة في الدراسات الأسلوبية، بل إنه موضوع الأسلوبية، لذلك وجب تحديد هذا الموضوع حتى يتأتى الفهم الجيد للأسلوبية.

2- مفهوم الأسلوب:

لخص عبد السلام المسدي في كتابه الأسلوبية والأسلوب إلى تحديد الأسلوب اعتمادا على ركائزه الثلاث: المخاطِب والمُخاطَب والخطاب.

أ- تحديد الأسلوب باعتبار المخاطِب:

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى اعتبار الأسلوب معانٍ مرتبة في عقل صاحبها قبل أن يكون ألفاظا يجري بها اللسان أو القلم « لذلك فكل أسلوب هو صورة خاصة بصاحبه تبين

طريقة تفكيره وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته»، ولعل أصحاب هذا الرأي قد تأثروا بنظرية ببيفون في تحديد الأسلوب فهو عنده (الإنسان عينــه) ومنهم: «شوبنهاور Schopenhawer الذي عرف الأسلوب بكونه ملامح الفكر، وتبناه فلوبير Flaubert ، ثم صاغه فقال: يعد الأسلوب وحده طريقة مطلقة في تقدير الأشياء، وكذلك فعل ماكس جاكوب Max Jacob إذ قال: إن جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته».

وعندما يتحدد الأسلوب باعتبار المخاطِب تصبح النصوص الأدبية انعكاسا لفكر أصحابها وكذا صورة عن واقعهم النفسي والاقتصادي والاجتماعي...

ب- **تحديد الأسلوب باعتبار المخاطَب:**

يتحدد مفهوم الأسلوب من خلال عدة عناصر أبرزها فكرة التأثير التي تستوعب عدة مفاهيم أبرزها الإقناع والإمتاع والإثارة، فالأسلوب – حسب جيرو- « مجموعة ألوان يصطبغ بها الخطاب ليصل بفضلها إلى إقناع القارئ وإمتاعه وإثارة خياله»، ويبين ريفاتير دور القارئ أو المخاطَب في تحديد الأسلوب، فيعرفه بأنه «إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام وحمل القارئ على الانتباه لها بحيث إذا غفل عنها شوه النص وإذا حللها وجد لها دلالات تمييزية خاصة، مما يسمح بتقرير أن الكلام يُعبِّر والأسلوب يُبرِز».

ويعود الاهتمام بالقارئ في تحديد الأسلوب إلى شارل بالي الذي يرى أن الأصل فيه هو إضافة ملمح تأثيري إلى التعبير يحمل محتوى عاطفيا.

ج – تحديد الأسلوب باعتبار الخطاب:

أشار بالي إلى القارئ في تحديد الأسلوب من خلال ملمح التأثير ولكنه لم يغفل الخطاب بل إنه « حصر مدلول الأسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها عن عالمها الافتراضي إلى حيز الموجود اللغوي، فالأسلوب حسب تصور بالي هو الاستعمال ذاته، فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة، والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما في مخبر كيماوي».

ومن هذا المنطلق يتوجه الباحث في دراسة الأسلوب إلى النص ذاته بمعزل عن المؤلف والمتلقي للكشف عن الطاقات الشعرية والجمالية الكامنة في لغته.

ومن هنا يصبح الأسلوب مظهرا مهما في دراسة النص الأدبي، وهو تأكيد على حضور الظاهرة اللسانية فيه، غير أن الأسلوبية تلح على دراسة البعد الفني والجمالي الذي يميز النصوص الإبداعية.

3-الأسلوبيـــة والعلوم الأخرى:

تعنى الأسلوبية بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية، أو ما يميز الكلام الفني عن الكلام العادي، لذلك فهي تتقاطع مع حقول معرفية أخرى أهمها: البلاغــة واللسانيات غير أن لكل منها مجاله وما يميزه.

أ- الأسلوبيـــة والبلاغـــة:

تتقاطع الأسلوبية مع البلاغة من حيث اهتمام كل منهما بالبعد الفني في دراسة النصوص الأدبية، ويطابق جيرو بين مجال العلم الأسلوبي ومحتوى التفكير البلاغي القديم، فموضوع كليهما «فن الكتابة وفن التركيب، فن الكلام وفن الأدب»، وهو ما جعل بعض الباحثين يقر بأن «الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر... الأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه، هي لها بمثابة حبل التواصل، وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا».

تجددت البلاغة في القرن التاسع عشر فكانت عاملا في وجود الأسلوبية، بل هناك من عدها – الأسلوبية – بلاغة حديثة، إذ البلاغة في خطوطها العريضة فن لغوي وفن أدبي، وهما سمتان قائمتان في الأسلوبية، غير أن الموقف تغير ففي بداية القرن العشرين ظهرت الأسلوبية إثر نوع من القطيعة مع البلاغة بعد أن قطعت شوطا آخر خلال مسيرتها التطويرية.

إن الأسلوبية علم له مقاييسه ومنطلقاته في التعامل مع الخطاب الأدبي، ما يجعله مختلفا عن غيره من العلوم التي يتقاطع معها وأهمها البلاغة، ويمكن إجمال أهم عناصر المفارقة والاختلاف في النقاط الآتية:

علم البلاغــة	الأسلوبيــة
1- علم معياري	1- علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية
2- يرسم الأحكام التقييمية	2- لا يطلق الأحكام التقييمية.
3- يرمي إلى تعليم مادته وموضوعه	3- لا يسعى إلى غاية تعليمية.
4- يقوم على تصنيفات جاهزة	4- يسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.
5- يرمي إلى خلق الإبداع بوصايا تقييمية	5- لا يقدم وصايا لكيفية الإبداع الأدبي.
6- يعد الانزياحات وسواها من الظواهر عوامل مستقلة تعمل لحسابها الخاص.	6- يعد الانزياحات عوامل غير مستقلة تعمل لحساب الخطاب كله.
7- يشير إلى العناصر البلاغية المكونة للخطاب، دون البحث فيما تفضي إليه من بناء وتناسق في شكل الخطاب ودلالته.	7- يشير إلى مكونات الخطاب جميعها ويبحث فيما يفضي إليه بناء وتناسقا وانسجاما شكلا ومضمونا.
8- لا يحدد السمات المهيمنة على الخطاب.	8- يحدد السمات المهيمنة على الخطاب ويهتم بالسمات الأدبية.
9- يدرس الخطاب الأدبي دراسة جزئية.	9- الأسلوبية تدرس الخطاب دراسة شمولية من حيث الظاهر أو الباطن.

ب- الأسلوبيــة واللسانيات :

من خلال التعريفات السابقة للأسلوبيــة يتأكد لنا البعد اللساني فيها وهو ما ذهــب إليــه روادها؛ فرومان جاكبسون ذهب إلى إثبات أن الأسلوبية فن من أفنان شجرة اللسانيات، ويتفق معه كل من أريفاي ودولاس وريفاتير.

وقد ذهب الدارسون العرب إلى ما ذهب إليه الغربيون في تأكيد العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات، وراحوا يحددون أوجه الشبه والاختلاف بينهما، يقول منذر عياشي: «لقد كان الظن بالأسلوبية أنها علم لن يلبث حتى يحظى بالاستقلالية وينفصل كليا عن الدراسات اللسانية؛ ذلك لأن هذه تعنى أساسا بالجملة والأسلوبية تعنى بالإنتاج الكلي للكلام، وإن اللسانيات تعنى

بالتنظير إلى اللغة كشكل من أشكال الحدوث المفترضة وأن الأسلوبية تتجه إلى المحدث فعلا، وأن اللسانيات تعنى باللغة من حيث هي مدرك مجرد تمثله قوانينها، وأن الأسلوبية تعنى باللغة من حيث الأثر الذي تتركه في نفس المتلقي كأداء مباشر، هذا إلى جملة فروق أخرى».

ويمكن تلخيص وجوه الاختلاف بين الأسلوبية واللسانيات فيما يأتي:

اللسانيات	الأسلوبية
1- تعنى أساسا بالجملة 2- تعنى بالتنظير إلى اللغة كشكل من أشكال الحدوث المفترضة 3- تعنى باللغة من حيث هي مدرك مجرد تمثله قوانينها.	1- تعنى بالإنتاج الكلي للكلام 2- تتجه إلى المحدث فعلا 3- تعنى باللغة من حيث الأثر الذي تتركه في نفس المتلقي كأداء مباشر.

يلاحظ من خلال هذه الفروق أنه مع اختلاف العلمين عن بعضهما إلا أن هناك عاملا مهما مشتركا بينهما وهو أن موضوعهما واحد وهو اللغــة، غير أن اللسانيات تتعامل مع مختلف الأشكال اللغوية في حين أن الأسلوبية تهتم بالاستخدام الفني للغة خاصة حين تخرج عن طرقها العادية إلى شيء من الانحراف والانزياح بغرض خلق دلالات جديدة.